من السيرة الذاتية والتجربة القصصية والروائية

ليلى العثمان

. . . كان طريق الحلم طويلاً. كنت على وسادتي التي امتصت أجمل دموع طفولتي أدفن رأسي عليها وأحلم بفجر ليس فيه دموع. كنت وأنا أرى الغضب كالنار يندلع من وجه أمي ليصب على براءة طفولتي أرتجف. وأحلم بيوم أصير فيه أماً ويقفز من وجهي ألف ضوء يعانق وجه أولادي وينير لهم الطريق. كنت وأنا بين عصف الفحيح القاتل من زوج الأم، وزوجة الأخ، وزوجة الأب أرتعش وتتصافق أعضائي. لكنني كنت أحلم بيوم تهدأ الريح فيه ويهل الربيع.

كنت على الجدران التي شهدت خطوطي المعوّجة، وبين أوراق دفاتري التي تمزقت أطرافها أسجل شيئاً ما. . وأحلم. . كنت حين أسمع تمثيلية أو أغنية. . أو أقرأ كتاباً لمؤلفة أو مؤلف. أحلم بأن أكون شيئاً. لم أفقد يوماً لذة الحلم. . ولا السباحة في مياهه، عكرة كانت أم صافية. ماذا كنت أملك غير الحلم؟ وما هو حلمي؟

نعم. . كان هذا هو الحلم: أن أصبح كاتبة. فكيف تحقق الحلم؟

دعوني أحدثكم رغم أنه من أصعب اللحظات على الكاتب أن يتحدث عن تجربة تخصه. فهذا يعني أن يتحدث عن جوانب عديدة من فصول حياته. وكأنه بين لحظة وأخرى يعترف ببعض الأشياء الخاصة والتي يحرص الإنسان العادي على أن تكون سرية له وحده. لكن الكاتب لا يستطيع أن يقف أمام حياته ليسترها. فهي لا تخضع لرغبته. بل تتحداه وتفرض وجودها عبر تجاربه. فيوظف أشياءها فيما يكتبه. وكثيراً ما يجد القارىء ضالته من خلال ما يقرأ لكثير من الكتاب.

لقد أيقظت الدعوة للحديث عن تجربتي مع القصة كل التاريخ الذي استراح لسنوات طويلة. فعدت إلى ألبوم حياتي أقلبه. فتبرز أول ما تبرز صور الطفولة. ولن أكون مبالغة لو قلت أن طفولتي هي التي جبلتني. . وصيرتني وأثرت في كل مراحل حياتي تأثيراً أساسياً واضحاً. إنها بكل ما فيها تبقى الأساس الذي يبني شخصية الإنسان. فما الذي تحمله تلك الطفولة؟

أستأذنكم أن أصحبكم لنتوقف عند يوم ميلاد الطفلة وما بعد ذلك الميلاد.

●●●●

تفتحت عينا الطفلة ذات نهار شتائي. كان الميلاد في مستشفى «الإرسالية الأمريكية» على ساحل البحر. كان للأم التي أنجبت ثلاث إناث قبلي حلمها الكبير في أن يكون المولود ذكراً. لكنني أحبطت الحلم. وخيبت الأمل، ولدت أنثى غير مرغوب فيها منذ اللحظة الأولى، فتصورت الأم أنها لو وأدتني حية في قلب البحر فإن هذا سيشفع لها عند الأب ويبقي عليها. لكن يد الممرضة كانت أرحم فأنقذتني. وشاء الله لي الحياة، لكنه لم يشأ أن تستمر الحياة بين أمي وأبي. فتم الانفصال. وكأنني «الأنثى» المسؤولة عنه. هل كرهتني أمي في تلك اللحظة؟ لست أدري ولكنني كنت الطفلة التي تبحث عن صدر أمها لتنتزع منه قطرة حليب دافىء لكنها اختارت رجلاً آخر أحق بصدرها مني. وهكذا تفتح عمر الطفلة بين براثن زوج الأم الذي كان يأكل هنيئاً مريئاً وأبقى بانتظار الفضلات لأشبع.

كانت عصا أمي غليظة الفعل. وكانت يد زوجها الغريب تحرس كل فرح للطفولة ينبت على الوجنة أو يرفرف داخل القلب. وكم امتدت يده بملقط النار إلى قدميّ فسلخ قشرتها، وقرحها. فغصصت بالدمعة وابتلعت ملحها. ونمت وجروحي نازفة، جروح جسد رقيق، وجروح نفس معذبة.

كم سنة عشتها في جحيم الأم الغاضبة دوماً، والزوج الكاره لوجودي ووجود شقيقاتي الثلاث؟ أذكر أنني خرجت من بيتها وما يزال ذلك الصراخ يزأر في ذاكرتي ولا أذكر إن كانت بكت، أو أنها طبعت على وجنتي قبلتها الأخيرة. كل ما أذكره أنني كنت في داخلي فرحة. أحلم وأحلم ببيت أبي الذي ربما يكون قائماً على الحب والحنان، بيت يحقق لي بعض الفرح ويسعد طفولتي التي شربت مراً وشبعت قهراً.

انفتح الباب الكبير أمامي. لم أكن أعلم أنه باب جهنم حتى سقطت بين مخالب زوجة الأب، وزوجة الأخ الكبير التي أشعل جمال طفولتي غيرتها. ففعلت أول فعلٍ لها ضده، قطعت جدائلي الشقراء وألقمتها للنار أمام عيني. وكانت تصلبني ساعات طويلة تحت الشمس الحارة ليسوّد لوني ويصبح كلون ابنتها التي في عمري.

كان مسلسل التعذيب فظيعاً. يبدأ من التجويع رغم خير الأب الوفير الذي لا يصل إلى ثغري بقرار من أعداء الطفولة. وكان الجوع أرحمَ مقارنة بأساليب التعذيب الأخرى والتي أجدني عاجزة عن وصفها. لكنني لم أعجز يوماً عن تذكرها. واستعادة ألمها. ليس حقداً على أحد لكنه السؤال الملح: لماذا عُذبت؟ وكيف يملك بعض البشر طاقة الشر هذه؟ وما الذي يفجرها؟

يقول البابا جون بول الثاني: «الشيطان يستطيع أن يتمدد في القلوب التي تفرغ من الحب في قلب الإنسان.»

هكذا نمت طفولتي في ذلك البيت على الأشواك. وحُسر عنها كل شيء: اللقمة، الضحكة، اللعبة، القبلة الدافئة.. وفيه تعلمت كيف أطأطىء الرأس وأخفض العين وأبتلع الغصة وأنام وحيدة مرتعشة. ما عرفت أبداً معنى حنان الأم ـ الذي قرأت عنه بعد ذلك ـ ولا معنى أن يكون لي أب يمسح على شعري ويهديني شريطاً ملوناً بدل أن يأسر قدمي بخلاخيل الذهب ومعصمي بالأساور التي كانت في الصيف الحارق تلهب جلدي وتترك الأثر. كان الأب الغني يريد أن يرى الناس نعمة الله ونعمته على الجسد الضئيل ليعرفوا أنه يملك. وأنني مولودة وفي ثغري ملعقة الذهب. أما جوف الطفلة.. فلا أحد يراه. آه كم كان الذهب مراً، وأنا لا أستطيع أن أمتلك لعبة تنام بين ذراعي وأزف لها أحلامي المتواصلة. ويوم حصلت عليها ذات عيد فعلت بها زوجة أخي كما فعلت بجدائلي. حاولت أن أنتشلها من جحيم النار لكن اليد الأخرى ألهبتني بالضرب. وظلت اللعبة تحترق وتحترق وأنا أودعها بدموعي حتى أطفأت النار.

لم أفقد الأمل. ولا الحلم في أن تكون لي لعبة. لكنني خفت على أحلامي. سترتها. كنت أخشى أن أعبر عنها فيكتشفها أعداء طفولتي ويكسرونها.

لم أجد أمامي غير تلك الجدران الطينية وقطعة الفحم الأسود. فأخذت أكتب عليها خطوطاً لا أدري بالضبط ماذا كانت تعني. لكنني بالتأكيد كنت أكتب ما يحدث لي. ثم بدأت أرسم.. أرسم وجه أمي الذي غاب في أحضان الغريب. ووجه أبي الذي أهملني في هذا البيت وسكن بعيداً مع زوجات جديدات. ولا بد أنني كنت أرسم عصفوراً أتمنى لو أكونه وأطير خارج البوابات الحديدية الظالمة باحثة عن عش حنون أسقط فيه، ورغيف خبز أشبع منه. بين تفاصيل القسوة والحرمان تلك كان يطل وجه الجارة الطيبة ـ أم خالد ـ التي نتحلق في ليالي الشتاء حولها وحول موقد النار. أسمع قصصها وحكاياتها الغريبة. وكانت تلك الجلسات أجمل الأشياء التي أذكرها من طفولتي. فقد أحببت تلك القصص. فإذا كانت جميلة نمت الليل سعيدة. وإذا كانت حزينة نمت باكية بعد أن أضم حزني الخاص إليها. وما أبشع الحكاية حين تكون مليئة بأخبار الجن والعفاريت. لم يكن الخوف ينقصني. فقد كانوا يمارسون عليّ الفعل. حين أسجن في غرفة مظلمة ويقولون إن «أم السعف والليف» ستأتي لتأكلني. أو حين أترك في حوش البقر «الصارف» لتفجر عنفها في طفولتي.

كنت أكبر. والخوف يكبر معي وما يزال. وكأنني بعد طفلة تخاف من الظلام والصراصير والجن والبحر.

لقد فتحت حكايات أم خالد في أفق الطفلة منابع كثيرة، وأمدتها بالخيال الواسع. عاشت رغم أصناف العذاب، استوطنت القلب ولحم الذاكرة حية تنبض بين وقت وآخر. ولم تكن حكايات الجارة وحدها هي النبع. كانت الأحياء القديمة والبيوت الطينية الدافئة المتلاصقة. والأزقة التي يتلاقى فيها الإناث بالذكور يتبادلون المشاعر البريئة وينسجون الأحلام أو يتراشقون بالسباب وبالكلمات الطافحة بالبذاءة.

كانت خصومة العطاء في تلك الأحياء كثيرة: الناس، الالفة، التعاون، الغناء، الأفراح، الموالد، وأعراس الطهارة، وليالي رمضان وعودة الحجاج.. كلها استوطنت القلب يعبق بها ويشدني حنين إليها كلما التقت عيناي اليوم بجدار قديم هدموا أغلبهُ أو شجرة ما تزال ترتوي من الوحدة وتكبره من امتصاص الزمن. وكان البحر أيضاً، وحكاياته التي يحكونها عن البحارة المغادرين، حفلات وداعهم واستقبالهم وما يصاحبها من غناء شجي وزغاريد وطيوب.. كنت أستمع إلى الحكايات عن البحارة وصراعهم مع الأعماق وحيواناته، ومع الطبيعة وثورتها وعواصفها. فقد كانت الرحلة تمتد شهوراً طويلة يعود بعدها البحارة أو لا يعودون. وتكون المرأة صابرة، تعمل، وتضحي وتنتظر. وحين أقارنها بامرأة اليوم التي لا تحتمل صراخ أطفالها أحس بتلك القوة التي امتلكتها. لكن هذا لا يمنع أن تكون لبعض النساء أسرارهن الخاصة في غياب الزوج. وآهٍ من تلك الأسرار.

كان البحر الذي تطل عليه البيوت هو المتنفس الوحيد للطفولة فيه نلهو. نغسل الملابس والأجساد والأواني. نتراشق بمائه.. ونجمع أصدافه لنصنع منها ألعاباً.. لقد عشقت البحر وعشقت أبوامه الراسية في النقعة أو وهي سائرة في العباب. عشقت النوارس البيضاء التي يرفرف القلب معها ويشتهي لو يملك الجناح.

أيضاً كانت هناك الوجوه الكثيرة التي ألمحها تدخل البيوت ويشار إليها فتترسب في الذاكرة: وجه أم فاضل وفعلها الشنيع فقد تخصصت في إجهاض البنات درءاً للفضيحة، وجه الدلالة ـ أم دهاش ـ التي تدور ببضائعها على البيوت وتفشي الأسرار وتمارس السحر، وجه المرأة الخاطئة الذي يفيض رائحته بكل ما تمارسه من

أساليب لسرقة الرجال، وجه صالحة المجنونة ومحيسن الأعور. . وغيرها كثير.

كل تلك التذكارات بصورها الحلوة والمرة كانت عين الطفلة تلتقطها وكذلك أذنها التي يحسبون أنها لا تلتقط إلا أوامر الكبار. كانت الذاكرة تسجل كل شيء. وتفرح به. . . وحين بدأت أكتب خرجت كل الحصيلة وفي قصص كثيرة مثل: طفولتي الأخرى، المواء، الموت في لحظة البدء، آخر الليل، الإشاعة، الطاسة، فتحية تختار موتها، رحلة السواعد السمراء، عريس في حي البنات، الملهى، وحده الظل يبقى وفي الليل تأتي العيون. . . وغيرها كثير تجدون فيه أجواء الطفولة وحكاياتها ووجوهها.

ولعل أكثر الوجوه التصاقاً بالذاكرة تلك الوجوه التي عذبتني. وكنت دائماً أنام وأحلم بأن أكبر ويقوى جسدي فأتمكن منهم أبصق في وجوههم كما بصقوا. وأكويهم بالنار كما فعلوا. ولكنني كنت أكبر وأحقق لنفسي شيئاً مدفوعة بكل آلام الطفولة وقهرها. فأجد نفسي أبتعد عنهم. وأنسى وجودهم. وإن تذكرتهم فإنما أتذكرهم وأنا في اللحظة التي يغمرني فيها حب الناس واهتمامهم. فأتمنى لو يكونون معي ويشاهدون ويتأكدون من أن السكين الحادة مهما فعلت فإنها غير قادرة على قطع شريان الحياة لمن يحب الحياة، ولا نبضة الحلم لمن صارت الأحلام جزءاً من حياته فيسعى لتحقيقها.

إن الطفل يستطيع أن ينزع لحظة الفرح أو ينساها. لكن لحظة العذاب، لحظة الألم، تتفجر بين حين وآخر. تعض أو تقرص أو تكوي. فأعبر عنها فيما أكتب. فيتساءل البعض: كيف لمن ولدت وملعقة الذهب في ثغرها أن تكتب عن الألم والحرمان والقهر؟ إن هذا التساؤل أو بالأحرى هذا الاتهام يؤلمني جداً. لكن الذين يعرفون واقع طفولتي المر - وها أنتم عرفتم أيضاً - يدركون أن ما عبرت عنه بصدق، إنما عشته بصدق.

أعزائي: ألا يكون من الواجب علي حقاً أن أشكر أعداء طفولتي؟

● ● ● ●

في نقلة جديدة للطفلة، في لحظة لست بقادرة على تحديد تاريخها، يكتشف الأب بالصدفة عذاب الطفلة وشقيقاتها فيقرر أن يحملنا إلى البيت الجديد، عند زوجاته الجديدات. إن كنت أنسى فلن أنسى أنني بكيت وأنا أودع زوجة أبي وزوجة أخي رغم كل ما نلته على أيديهما من ألم. هل كنت أبكي حزناً لأنني سأودع البيت الذي رسمت عذابي على جدرانه وخبأت أحلامي في أركانه وزواياه؟ أم كنت أبكي فرحاً لأنني سأنفذ بطفولتي من قلب النار التي تفجرت أحقادها على الجسد والنفس؟ لا أدري. لكنني خرجت من البيت الظالم تاركة الشيطان ممدداً في قلوب أصحابه الفارغة من الحب.

لماذا كنت سعيدة وأنا أشد على يد أبي سائرة نحو المجهول؟ لماذا لم يستطع عذاب بيتين سابقين أن يرعش قلبي خوفاً؟ ولماذا كنت أحلم - رغم أحلامي الأولى التي أُحبطت - بأن البيت الجديد سيكون أرحم وأن سماءه ستكون صافية تمطر حباً وتدفىء حناناً؟ هل كان بداخلي شيء يؤمن بأن السماء موجودة لمن يحب السماء؟ وبأن الحياة تبتسم لمن لا يفقد قدرته على الحلم؟

انفتح الباب. . كانت الوجوه مبتسمة وطيبة. لكن المفاجأة كانت حين وقف أبي أمام زوجتيه وقال بحزم شديد وهو يخلع إحدى فردتي حذائه: أنتما مثل الحذاء القديم أخلعه حين يتسع أو يقدم. أما هؤلاء - وأشار نحونا - فهن لحمي ودمي الذي لن أتخلى عنه. ولن أسمح بأي ضرر ينزل بهن. وحذرهما تحذيراً شديداً. ورغم فرحي باهتمام أبي وإحساسه بالمسؤولية تجاهنا إلا أن الصورة كانت بشعة. وكانت قسوة أبي مؤلمة وأنا أرى الذل في وجه زوجتين لم ينفر منهما عداء تجاهنا منذ اللحظة الأولى. ظلت تلك الصورة عمراً لا تغادر الذاكرة حتى كبرت وكانت تلك هي اللقطة الأولى التي جعلتني أهتم بوضع المرأة وأركز عليه في كثير من القصص.

دعوني أعترف بشيء - رغم أنه يؤلمني - وهو أنني لم أحب أبي طوال السنوات التي عشتها معه. كان يمثل شخصية «سي السيد» بكل تفاصيلها المتناقضة. كان الرجل الذي لا ترد له كلمة ولا يعصى له أمر. وأمام عصاه «وعقاله» لا ترتفع عين أو ترفرف أمنية. لكن هذا لا يمنع أنني كنت أعجب بنواح كثيرة في شخصيته. كان يجسد لي كثيراً من المعاني الجميلة. لعل من أبرزها صفة العدل والتواضع الشديد وإيثار الغير من الناس على نفسه وعلى أهل بيته وأحببت مآثره الكثيرة التي يتحدث الناس عنها حتى اليوم.

في بيت أبي تمتعت بأشياء كثيرة مادية. . حصلت على كل ما حلمت به طفلة من لعب. . وملابس. . ودفء. وتعلمت كذلك أشياء كثيرة. أدركت أول ما أدركت أن الأم ليست هي التي تحمل الطفل. . وتلده. . وترضعه. بل الأم هي التي تربي الطفل وتتعب عليه. . وتغدق من عصير فؤادها ما يجعله يكبر. ويكبر. ويؤمن بعد ذلك بأن الله الذي خلق الشر والشيطان. خلق الخير والملائكة. إن الحنان الذي افتقدته في بيت أمي وحضنها. . أغدقته زوجات الأب لن أنسى أبداً حبهن ورعايتهن وأياديهن الكريمة التي علمتني كيف أكون بعد ذلك ربة بيت وأماً تعرف ما هي الأمومة وتغدق حنانها الكبير. وما زلن رغم مرور عشرات السنين أمهاتي الفاضلات.

لم يكن بيت أبي هو مصدر الفرح الأول. بل كانت المدرسة التي خرجت إلى حدودها لأصبح العصفور الذي حلمت أن أكونه، ووجد البستان الذي يغرد فيه، ويتعلم كيف يرسم وجه طفل أحبني. ويكتب أول ما يكتب لفظة الأم التي تمنيت لو أنني أذكر قبلتها.

في المدرسة تنفست. كنت أفجر كل الكبت القديم. أتشاقى، وأمارس لهو الطفولة الذي كان ممنوعاً، وأنخرط كذلك في كل

النشاطات التي فجرت مواهبي، في الرسم والشعر والتمثيل. وفي أول وقفة على المسرح كنت «كيلوبترا»، لكن أبي «المتعصب» رفض؛ إذ كيف لبنات العائلات أن يقفن أمام الجمهور المختلط؟ كان ذلك قبل العرض بيوم. مما جعل الناظرة تهرع إلى البيت وترجوه، إذ لا بديل غيري؛ فقد حفظت الدور وأتقنته، فوافق شريطة ألا يُذكر اسمي واسم عائلتي. لكن غرور الأب حين سمع التصفيق والإعجاب جعله يتلفت لمن حوله ويعلن أنني ابنته. لكن «كيلوبترا» وقفت وقفتها الأولى والأخيرة وأسدل على الموهبة الستار.

كان إحساس الطفلة وحبها للأشياء قد بدأ يتفجر لأبرز في دروس اللغة العربية. وقد أخذت دروس الإنشاء تتحول إلى قصص جميلة تذيلها المعلمة بكلمات الإعجاب وتؤكد: ستكونين كاتبة قصة في المستقبل. فأخذ الحلم طريقه إلى ذهني. وبدأت أكتب التمثيليات القصيرة في مناسبات كعيد الأم وعيد العلم والهجرة النبوية، وألقى كل التشجيع من المدرسات.

وفي المدرسة أيضاً عالم جديد تخطى فيه الذهن مرحلة حكايات الجارة. صار يبحث عن مصدر جديد يستقي منه المتعة والعبرة. فكان الكتاب ومكتبة المدرسة التي نهلت أغلب قصصها، ولم تكن القصة في يدي ملكاً خاصاً فقد كنت أستعيرها لأختي الكبرى التي فرض عليها أبي أن تترك المدرسة. كانت ترجوني أن أعتني بعناوين القصص. لكن بحثي عن تلك العناوين الشائقة لم يمنع أن أستعير يوماً قصة «ملاك الموت» التي حين قرأتها غضبت مني وقالت: لا أريد قصص موت. أريد «وأخذها بين ذراعيه». لكن الموت منذ مرحلة مبكرة كان يمثل لي شيئاً. كنت ببراءتي أتمنى أن يموت زوج أمي وزوجتا أبي وأخي ليبقى الجسد سليماً والشعر جميلاً. دون أن أتمناه أبداً لنفسي. فرغم الشقاء الصعب إلا أنني كنت أحسه أرحم من الموت الذي قد يأتيني قبل أن أحقق شيئاً من أحلامي التي أصوغها حلماً بعد حلم.

يقول توماس مان: «على الإنسان في سبيل التراحم والحب ألا يدع للموت سيطرة على فكره». لكن الموت ظل مسيطراً حتى كبرت. لم أعد أتمناه لأحد. فلم يعد يهمني أن يموت أعداء طفولتي أو يبقوا. لكنه صار القلق المزمن المسيطر الذي يقف في وجه الأحلام.

وفي زمن الصبا تكبر الأحلام. نقرأ، نسمع الإذاعة، ويخفق القلب إلى بطل. ولكن كيف تتحقق الأحلام ولا مجال لرؤية وجه رجل غير وجه الأب. فلا مجال للاختلاط. الإناث دائماً يحطن بأسوار الحديد والمراقبة. ويتبعثر الحلم أكثر حين يأمر أبي بأن أترك المدرسة وأنا ما زلت في الصف الثاني الثانوي. لقد قطع بذلك الحبل السري بيني وبين رحم الحياة المدهش.

لن أنسى تلك الليلة. أعترف لكم أنني كرهت أبي كراهية شديدة وتمنيت لو أكون «ملاك الموت» الذي قرأت عنه لأقبض روحه وأنال حرية اختياري. لكنني وقفت مصعوقة أمام القرار. لم أجرؤ أن أرفع عيني إليه رغم أنه كان بداخلي شيء يصرخ: ثوري. ارفضي. قولي لا. لكن «اللا» تعطلت كما تعطلت قبل ذلك وبعده لاءات كثيرة بسبب الخوف. أذكر فقط أنني همست بذل عجيب: أمرك يا أبي.

وهكذا بدأت أعيش واقع السجن كأي فتاة شرقية بانتظار العريس وأنا بين الأسوار العالية التي لا تسمح للرأس أن يطل نحو الأفق فأشعر بالاختناق والانكسار.

يقول همنغواي: «قد ينكسر الإنسان ولكن يجب ألاّ ينهزم.» فقررت ألا يهزمني السجن. انكببت على القراءة. طلبت منه أن يأتيني بالكتب فلم يبخل. وهذا فضل من أفضال أبي لا أنساه فتح أمامي بحر الثقافة. جعله يتدفق ويغري. وهكذا سقطت في بحر الكتب. وكلما قرأت وجدت نفسي أكتب متأثرة بما أقرأ وبدأت أحلم بالحب الذي أقرأ عنه. لكن من أين يأتي؟ وكيف أعيشه كما عاشته البطلات الشهيرات. كان الحب شيئاً محرماً. والحياة خارج حدود البيت محرمة. فلم يكن بد من أن أصنع ببراءتي الرجل الحلم متأثرة بقصة ماجدولين وغيرها من القصص الرومانسي. فأكتب الرسائل.. وأكتب قصائد حب سلمتها بكل البراءة أيضاً للأب. ففوجئت بصفعة حارقة سبقتها بصقة حين استفقت منها وجدت أبي بهلع شديد يفتش في خزائني ويبحث بين ملابسي - حتى الداخلية منها - لعله يجد رجلاً ممداً، وحين لم يجد الرجل حذّر حتى من الحلم وإلاّ!!

يقول شولوخوف: «الصفعة غالباً ما تكون الأمر بأن نكون أفضل.» لقد مسحت صفعة أبي مرة، وألف مرة بعد ذلك. وصرت أحلم سراً. وأحب سراً. وأكتب سراً. صارت كل الأشياء التي اختزنتها تأتي، تفيض، وكانت القصة القصيرة دائماً هي الإناء الذي يصب فيه فيضان نفسي. فأنفس فيها عن كبتي.. وحرماني.. وأحلامي. أردت للزئير المخنوق أن ينال حريته ليخرج. أن تخرج كذلك صرخة كل الإناث اللائي يقع عليهن ما يقع عليّ. وكل النساء أمثال زوجات أبي اللائي يعانين من الخضوع والإذلال لمجتمع ذكوري كامل تكون فيه المرأة مثل الفأرة المذعورة يهددها الرجل بالهجر.. وبالطلاق. وبالحرمان من الأطفال. فتنهار بيوت ويتشرد أطفال أرثي لحالهم كما رثيت لحالي يوم كنت طفلة تشردها البيوت والقلوب القاسية.

واقع المرأة الاجتماعي أخذ حيزاً من اهتمامي تشعله تلك اللحظة التي خلع أبي فيها فردة حذائه. واستمر بعد أن خرجت للحياة، وتحسست هموم المرأة الكبرى. لقد صورت واقع الظلم والألم في قصص كثيرة مثل: امرأة في إناء، الأورام، البيع، الجدران تتمزق، دقات المطر، من ملف امرأة، ويبقى الصوت حياً، المرأة والقطة، وسمية تخرج من البحر.. وغيرها كثير.

لم يأخذ واقع المرأة الاجتماعي حيّزه الكبير في قصصي لأنني امرأة تحس مع بنات جنسها وحسب، ولكن لأن ميلاد الإنسان في داخلي الذي عانى من الظلم يرفضه ويكره أن يقع على فرد من أفراد

المجتمع سواء المرأة أو الرجل. وهكذا أخذ الرجل حيزه في قصص كثيرة مثل: الهمسة الملعونة، الرؤوس إلى أسفل، على سفر، القلب ورائحة الخبز المحروق، والمرأة والقطة.. وغيرها من القصص التي يقع فيها القارىء على كثير من تفاصيل حياة السجن التي عشتها في بيت أبي حتى انفتح الباب في يوم، وكانت نقلة جديدة.

إن تجربة أخوات ثلاث في ظل أبناء العم كانت مريرة جعلت أبي يرفض ابن عمي، ويرضى بالغريب الذي جاء. فأرضى به غير مترددة، آخذة بنصيحة زوجة أبي الطيبة وحالمة بالهرب من واقع السجن المفروض إلى مجتمع رغم جهالتي به زف لي البشرى بالخير.

●●●●

في عام ١٩٦٥ الذي أعتبره عام ولادتي الأولى، ارتبطت بالزوج الفلسطيني رغم ثورة مجتمع كامل ضد أبي الذي تصدى للثورة، وأعلن من منطلق إيمانه بالقومية العربية: لقد زوجتها لعربي مسلم.

وهكذا خرجت من ذلك البيت الذي حملت أعباءه النفسية والاجتماعية. خرجت غير مصدقة إلى مجتمع لا أسوار فيه، مجتمع يحترم مشاعر المرأة وإنسانيتها وطموحاتها فيدفعها نحو العلم والعمل والثورة.

منذ ذلك العام بدأت أتعلم أشياء كثيرة واكتشف الحياة من حولي. فأرضى. وأرفض. بدأت أعرف كلمة لا، بعد أن فرت من قواميس لغتي كل الكلمات ما عدا كلمة نعم.

ما أكثر ما قلت نعم وطأطأت الرأس وانكسر في داخلي ألف قمر. لكن الفلسطيني علمني كيف أرفع رأسي وكيف أبدأ رحلتي حين انكشف السر عن الكتابات المخبأة، التي فاجأت الزوج وأثنى عليها وقرر أن تخرج للصحافة والنشر. لكن الأب رغم انفصالي عن سيادته يرفض أن آخذ الحق لنفسي ويحذر زوجي الذي استسلم لإرادته احتراماً فتصيبني الخيبة لكنها أبداً لم تفقدني الحلم.

هل كان القدر يشفق على أحلامي المكسورة أجنحتها فقرر أن يزيح العقبة من طريقها؟ وإلّا كيف فاجأ القلب أبي بعد ثلاثة شهور فقط من الزواج. كنت خلالها أثور على الزوج الذي لم يساندني، وقد حلمت بأن يكون هو الفرج. سأعترف هنا - وليسامحني الله - بأنني لم أحزن لموت أبي فقد كان وجوده عدواً لحريتي. فرض عليّ الحجاب والاختباء ثم قراره بوأد نزيف القلم. يومها بكيت. لكنّ فرحاً ما رفرف داخل قلبي. وفي اللحظة التي واروه فيها الأرض أمامي وأهالوا عليه التراب، رأيت أبواب الحرية الموصدة تلوح لي ببيارقها الملونة وتنفتح أمامي على مصاريعها وتدعوني أن أبدأ الخطوة.

لا بد من الإشارة هنا إلى أن الأقدار تستطيع أن تقدم الخطوة الأولى. لكن السؤال الذي يبقى: ما نسبة هذه الظروف - المصادفات - التي تحدث وسط مجتمع؟ وبالتالي ما نسبة الأصوات التي تختنق لأن الأقدار لا تمر ببابها؟ لقد كنت واحدة ممن خدمتهم الأقدار فأفلتت من حصار الظروف لتجد كل الأبواب والمساحات مفتوحة ربما بأكبر من الحجم الذي تريد وذلك بسبب ندرة الأقلام المحلية النسائية.

وفي أول تجربة للنشر كانت يدي ترتعش وهي تمسك بالقلم تسطر رسالة إلى باب ثقافي في مجلة وترفق نماذج مما كتبت. وكان الحلم هو رفيقي تلك الليلة. وكان أيضاً القلق: هل ستجد كتاباتي سبيلها إلى النشر؟ ولا يطول الأمر. كانت الكتابات والصورة في العدد التالي مع كلمة ترحيب حارة بالقلم النسائي، وتأكيد على ولادة موهبة جديدة (حين أعود لتلك الكلمة اليوم أحس بريائها ومبالغتها). لقد كان كل شيء بسيطاً بعد الخطوة الأولى. ولكن هذه البساطة تكشفت عن أزمة بعد ذلك. فالاسم المحلي النسائي هو المطلوب قبل الجهد وقد تكشّف لي ذلك مبكراً عندما تصور زميل - غير محلي - أنه يستطيع أن يضيف إلى جهدي. فكتب في زاويتي فقرة نشرت باسمي. عاتبته بشدة فاحتج بنقص المادة. واستغرب العتاب واعترف بأنه يمارس مثل هذا العون مع بعض الأقلام لكنني رفضت المبدأ. كان الصدق يحكم هذا الرأي رغم طفولة الموهبة بعد. ثم تكشفت الظاهرة بالتدريج. وأعلنت عن الأسماء التي تستعير كتاباتها لأجل الشهرة. وكان انحسارها بعد ذلك أكيداً.

هكذا بدأت بالصحافة. فووجهت كما ووجه غيري باعتراض شديد من مجتمع صغير - الأهل - ومجتمع كبير - الناس - ولعل الأسوأ هي الألسنة التي تجرّح بالمرأة الأنثى وتصمها باتهامات شديدة القسوة. كادت هذه الألسن تجعلني أتردد لكنني رفضت هذا التردد مؤمنة بقول أورين ميلر: «إنك لن تأسف على ما يظنه الناس بك إذا تذكرت أنهم نادراً ما يفكرون بك». ومؤمنة أيضاً بحريتي التي نلتها بعد وفاة أبي. رفضت أن تكون لأحد وصاية عليّ. وأن يكون حجر عثرة في طريق الخطوة. وواصلت الكتابة والنشر. كتبت المقالة والتحقيقات الصحفية والوجدانيات والشعر. لكنني دفنت القصص. أردت إرضاء القارىء العاطفي الذي يريد كلمات الحب، و«يريد أن يأخذها بين ذراعيه». كنت أرضيه متصورة أن هذا كله هو الذي سيحقق الحلم بأن أصبح كاتبة معروفة.

وهكذا انجرفت مع التيار السائد. وأعترف الآن أمامكم - وما أكثر ما اعترفت اليوم - بأنني كتبت كثيراً من السخف والتفاهات وكان الناس يتابعون. يصفقون. وأفرح بالتصفيق وبعشرات الرسائل التي تصل كل يوم وتغريني بالمزيد من السخف. أعترف بأن أشباه النقاد أخذوا ينفخون في البالون فأنتفخ أسبح في الهواء والفراغ. لم أجد اليد التي تهزني وتوقظني من نشوتي الكاذبة حتى لدى الزوج الذي كان يفرح لفرحي. فصدقت أنني شاعرة عظيمة. وجمعت تفاهاتي في ديوان بائس أسميته «همسات». وزعته بكل الغرور على الناس وتناوله أشباه النقاد بالمديح وبالتهويل. وأهمله من كان يجب أن يقولوا نقدهم الصريح. ربما خوفاً من أن تنفجر

البالونة الجاهلة في وجوههم (وهذه مسؤولية النقد الجاد الذي لا يتصدى للتفاهات).

وإذا كانت الصحافة هي السرطان الإعلامي الذي يجذب الكاتب ويغريه بأن يتواصل مع الناس فيستلب وقته ويؤثر على إبداعه الحقيقي، فإنها كذلك - أي الصحافة - المقبرة المليئة بالأوحال التي تغوص فيها الموهبة المهملة. لقد استمر غوصي في هذه السيول منذ عام ١٩٦٥ حتى ١٩٧٤ العام الذي فقدت فيه والد أبنائي الأربعة فانزويت لفترة لم أكتب خلالها إلا القصة القصيرة. أحسستها أقرب الأنواع الأدبية إلى نفسي وقابليتي. وأنها الفن الوحيد الذي أستطيع أن أمارسه في وحدتي وألمي، وأنا أملك الفراغ بعيداً عن الصحافة وسرطانها. . ولم تطل فترة الانزواء.

خرجت إلى الحياة ثانية. إلى أجهزة الإعلام: الإذاعة، التلفزيون، والصحافة أيضاً. لا لأنشر القصص. بل لأمارس لهو الوجدانيات والشعر أيضاً.

ذات يوم حملت ديوان همسات إلى ناقد معروف بجديته وقسوته فما كان منه إلا أن رماه في وجهي وقال ساخراً: ربيّ أولادك أحسن.

إهانة! يا للهول. . كيف يجرؤ. إنها لحظة أصعب من بصقة أبي وصفعته. لكنني تعودت ألّا أنهزم. وبدأت أعود لأدراجي. وأنفض الغبار عن قصصي. فتقع إحداها بين يديه. وأراها منشورة في جريدة الوطن - الإشارة الحمراء - فرحت واتصلت به قلت:

- أنت رجل لا تعترف بمواهبي فكيف اعترفت بقصتي ونشرتها؟

يومها أيقظني من الزهو الكاذب. قال:

- أنت موهوبة. ولو ركزت على القصة فسيكون لك شأن في ميدانها. ستكونين كاتبة على المستوى العربي أيضاً.

زرع في نفسي شيئاً بعد الإهانة. وأمدني بالفرح، فرحاً متأنياً حذراً. فاستيقظت من غيبوبة العظمة الزائفة وبدأت أركز على القصة وعلى قراءات أخرى كنت لا أعيرها الاهتمام كالنقد الأدبي والمسرح.

●●●●

إن ميلادي الحقيقي كان في عام ١٩٧٥ وقد جاء على يد ذلك الناقد الذي أدين له بالشيء الكثير. ولا أدري هل من حسن حظي أو من سوئه أن يكون بعد ذلك زوجاً لي. في عام ١٩٧٦ أصدرت أول مجموعة قصصية - إمرأة في إناء - كانت في أغلبها تركز على قضايا المرأة. وقد لاقت ترحيباً في الأوساط الأدبية مما شجع النفس المشبعة بالأحلام وبالطموح أن تكون المجموعة الثانية أفضل وأكثر شمولاً. إن الإنسان يولد في أرضه ويترعرع فيها. تتفتح عيناه على كل الصور والأحداث. فيعايشها. ويحسها. كل هذا يجعل الكاتب أكثر التصاقاً ببيئته وبمحيطه التصاقاً وثيقاً لا فكاك منه فلا ينفصل عن قضية من قضاياه صغيرة كانت أم كبيرة. ثم يتسع أفق الكاتب. تتسع مساحات النظرة تخرج عن نطاق الإقليم لتشمل كل الوطن العربي الذي ينتمي إليه ويحمل الهموم والمشكلات نفسها. لم يكن الإحساس «العروبي» وليد لحظة اتخذت فيها قراراً. كان الأب يوجه هذا الاتجاه منذ الطفولة. وكان يحث على قراءة التاريخ العربي ويعايش مشكلات الوطن العربي ويساهم بالقدر الذي يستطيع. كان يتبرع لأي مجهود حربي بمبالغ كبيرة وحين يسمع لوماً أو عتباً، يرفضه ويصر قائلاً: حاجة الوطن العربي للمال أكثر من حاجة أهل بيتي إليه.

نما الإحساس القومي منذ الطفولة. كنت أرى زميلات لي صغيرات قادمات بعد نكبة فلسطين. وكنت حريصة على قيام روابط مدرسية معهم. وشجع أبي هذا الاتجاه. صارت فلسطين في القلب وما تزال. لقد تعرفت على البيئة الفلسطينية. وتلمست الهموم الحياتية الصغيرة، حتى الأحلام وأولها حلم العودة. صرت واحدة من الأسرة التي تحلم. . فأحلم. وكانت أوضاع وطني العربي الكبير بانتصاراته وانكساراته تتوغل في القلب والفكر. صارت الهم الأكبر الذي أريد أن أعبر عنه خاصة وقد صارت الأسفار إليه كثيرة. وحين صدرت مجموعتي الثانية الرحيل كانت بداية الحلم الأدبي تتحقق. فهذه المجموعة تصدر عن دار الآداب التي عرف عن صاحبها د. سهيل إدريس اهتمامه ورُعايته للمواهب الجديدة ورفضه أيضاً لكل طارىء على دنيا الأدب. وحين سمعت كلماته الأولى التي انتظرتها بصبرٍ فارغ نبتت في داخلي شجرة، ليست شجرة فرح مؤقت أو غرور، بل شجرة تريد لجذورها أن تقوى وتتمدد في الأرض، وتطرح ثمراً يحظى بالاهتمام والتكريم من أديب كبير ولدت على يديه أسماء كبيرة، وأحسست بأن مسؤوليتي تجاه نفسي، وتجاه مجتمعي، وأمتي العربية تكبر وتلح عليّ لأتجه اتجاهاً جاداً، وأواصل التعرف والاندماج في المجتمعات الأخرى، وأشارك في المؤتمرات الأدبية وألتقي بكبار الأدباء الذين قرأت لهم واقتديت بهم وحلمت بأن أصبح ذات يوم واحدة منهم. ولم يشغلني هذا الحلم وهذه المشاركات عن القراءة التي يتسع أفقها كلما اتسعت المسافة أمامي. لقد اكتشفت بعد أن مارست القراءة الجادة أن قراءاتي في سجن أبي لم تكن قراءة واعية. كنت أقرأ كل شيء دون اختيار. كنت أريد أن أقتل الوقت وأملأ الفراغ وأبحث عن المتعة وربما استفدت من تلك القراءات رغم تخبطي الشديد بها. لكنني في سنوات الوعي اكتشفت أن القراءة ليست ترفاً. ولا وسيلة لملء الفراغ. بل إنها مشقة حقيقية واكتشاف لعوالم غنية. فعدت إلى مكتبتي أبحث عن كتب كثيرة لأعيد قراءتها بما ملكته من وعي جديد وقد تعلمت أن أمسك القلم الرصاص عند القراءة.

في الرحيل لم انفض هموم المرأة ولم أرفضها، ولكني وظفتها بشكل أوسع وكان الحيّز الأكبر للقضايا السياسية المحلية منها والعربية كما في الحشرات، نشاط تجسسي، الرحيل، تفرقت الخيول، الوعود، الجنية، زهرة تدخل الحي، محاكمتان. . . وغيرها كثير.

وفي مجموعتي الثالثة ـ في الليل تأتي العيون ـ وهي أيضاً من إصدارات دار الآداب، يشرفني الكاتب الكبير حنامينه بمقدمة تحمل ترحيبها وتشجيعها لموهبة حقيقية. ولم تحمل الكلمة رياءً.. لكنها حملتني مسؤولية أكبر. في قصص المجموعة استمرار للخط الذي بدأته في الرحيل وأيضاً استكمال للهم الفلسطيني الذي أصبح هماً بفعل الانتماء الوطني والعائلي والهم العربي الكبير. ولعل من أحب القصص إلى نفسي في هذه المجموعة قصة «النمل الأشقر». إنني أعتز بها كثيراً فقد ترجمت إلى عدة لغات أجنبية. وقررتها وزارة التربية على طلبة الثانوية العامة. وحظيت باهتمام النقاد في أكثر من بلدٍ عربي.

في عام ١٩٨٢ صدرت مجموعتي الرابعة عن دار الآداب أيضاً ـ الحب له صور ـ تسير في النهج نفسه: المحلية التي أرتبط بماضيها وحاضرها، والهم العربي الذي يكبر كلما كثرت الانقسامات والانكسارات والخيانات.. والتمزقات. وصارت حدود الوطن آلاف الحدود التي يعاني فيها المواطن العربي قهراً وإذلالاً. كما عالجت المجموعة بالرمز أحياناً وبالمباشرة حيناً قضايا المرأة التي ما تزال رغم التطور والانفتاح ترضخ لواقع فيه من المرارة الشيء الكثير. لكن هذه المجموعة تمنع، والتشجيع المعنوي والأدبي الذي ألقاه من الناس والنقاد ومن الدولة يقابله رفض من أعداء المرأة الذين يريدون لها أن ترتد إلى عصر الظلام. فيدسّون لحاهم الطويلة في لحمة مشاعرها. يحرمون ويحللون ويتربصون بالأقلام التي تكتب متهميها بالزندقة وبالإلحاد. لكن هذا المنع لم يمنع القلم الذي احترف الكتابة أن يواصل الركض على الأرض وفوق الغيوم. ولا الخطوة أن تواصل المضي في الطريق الصعب الذي يتسع وكلما قطعنا منه شوطاً أدركنا أن أعداءنا كأصدقائنا يزدادون كلما ازداد نجاحنا. وهكذا أصدرت المرأة والقطة وسمية تخرج من البحر ـ وهما روايتان ـ ثم مجموعة فتحية تختار موتها وفي الطريق مجموعة جديدة تحمل عنوان حالة حب مجنونة وما تزال الخطوة تثب رغم التعب.

●●●●

حين أستعيد الخطوات كلها، أعترف أن الخطوة الأولى هي الأساس. فلو لم تكن لما كانت هناك خطوات أخرى. ولكنت خسرت كل حلم عشته. ولم يكن الحلم الأدبي وحده. كان هناك حلم آخر راودني منذ كنت طفلة أتعذب.. تقول الفنانة ويتني هيوستن: «هدفي كفنانة أن أصل إلى كل الناس. وهدفي كامرأة أن تكون لي عائلة وأطفال. وأن يشاركني في كل ما أملك رجل أحبه. لأنني أؤمن بأن العائلة هي أعلى قيم المرأة.»

نعم.. لقد آمنت بما آمنت به الفنانة ويتني. فلم يكن تحقيق الحلم الأدبي والنجاح فيه منفصلاً عن الحلم الآخر أو على حسابه. لقد كوّنت العائلة.

يقول مارتن مول: «أن تكون لديك عائلة يعني أن لديك زقاقاً في حالة غليان يتحرك في دماغك.» إنه حقاً زقاق يغلي. فالزوج الكاتب يحتاج الوقت ليكتب ويبدع. وقد أبدع. رغم الغليان وصراخ طفلتين لا يهدأ.. والأبناء الأربعة الذين تركهم الأب أطفالاً كبروا.. وهم في القلب الذي لم تتوقف دقاته حباً وحناناً ودعاءً. يحققون كل في مجاله نجاحاً يجعلني أقول: إن أكبر نجاحاتي ليست تلك التي حققتها على الصعيد الأدبي بل تلك التي حققتها كأم.

صدقوني أيها الأعزاء إذا قلت لكم أنني مدينة لأمي بكل شيء في حياتي. لقد كنت أنتقم من قسوتها عليّ أشد الانتقام وأنا أربي أولادي وأغدق حناني عليهم حتى في لحظة الحزم والشدة. وآثرتهم على نفسي وعلى وقت الكتابة، وأحببتهم كثيراً. ومن تعلم أن يحب كثيراً يتعلم أن يصفح كثيراً. وهكذا حين كبرت وسقطت عليّ ظروف الحياة القاسية، بررت قسوة أمي بظروف سقطت تحت وطأتها في مجتمع شديد القسوة. فأحببتها.. وغفرت لها. وبكيت يوم ماتت بكاءً مراً. لقد غفرت كذلك لأبي الذي حرمني من مواصلة الدراسة فقد كان هو الآخر يرضخ لتقاليد تحرم على الأنثى أن تتعلم وتصافح وجه الحياة.

والآن، وبعد هذا المشوار الطويل.. هل استطعت أن أحقق شيئاً؟ يقول: أو. اس. ماردين: «إن الإحساس بالنجاح لا يكون بمقدار ما يحققه الإنسان. بل بمقدار العقبات التي استطاع أن يتغلب عليها. والشجاعة التي تعامل فيها مع هذه العقبات.»

أنا لست أديبة عظيمة. لم أكتب لأنني تخرجت من معهد عالٍ للفنون والآداب ودرست فيه فن القصة. ولا لأنني تخرجت من جامعة وحصلت على شهادة الدكتوراه. أنا لا أحمل إلّا شهادة الصف الثاني الثانوي. وقبلها شهادة أن لا إله إلا الله. لقد كتبت لأنني مشيت على الجمر وأنا طفلة فأردت لهذا اللهب أن يغادرني. فخرج وسكن أصابعي التي تفجرت بالكتابة. فكانت علاجاً لأمراض طفولتي، واضطرابات حياتي. لم تكن الكتابة أبداً ترفاً أو مظهراً، بل كانت الوجع الذي أحس. فحين كتبت القصة القصيرة لم تكن لدي معرفة وافية بشروطها وأصولها. كتبت انطلاقاً من موهبتي وتجربتي، ومن الوعي الذي تشكل بفضل القراءات. بعد ذلك اهتممت بفنية القصة لدرجة أن هذا الفن صار هاجساً أساسياً من هواجس ككاتبة. ولا أكتمكم أنني استفدت كثيراً من قراءة القصة الأجنبية التي قرأت لأكبر كتابها قبل أن أقرأ لكتابها العرب. فشكلت القصة الأجنبية أحد الروافد المهمة في تجربتي.

الكويت